المرض وأعراضه عند عامة الأندلس في العصر الموحدي

أ. مليكة عدالة*

أدة. فاطمة بلهواري*

الملخص:

تعرض العوام في الأندلس إلى أمراض وأوبئة خطيرة مست السواد الأعظم من الشرائح الاجتماعية الهشة، خاصة وان هذه الأمراض تزامنت مع وقوع حروب ومجاعات عظيمة ذاق ويلاتها المستضعفون، الذين أصابتهم أمراض مستعصية عجزوا فيها عن مقاومتها نتيجة لتدني مستوى معيشتهم،فراحوا يبحثون عن مختلف وسائل العلاج معتمدين على معارفهم الخاصة قصد الاستشفاء.

Abstaract :

The low class of people faced killer diseases in indalusia. these sicknesses showed that poverty used to be the major factor, which affected mainly the majority of the poor and the weak people. These illnesses were due to famine and wars. Therefore, this people suffered a lot from these diseases that could have no cure at all, and that pushed them to try to find simple medicines that could at least calm their pains.

---

* طالبة دكتوراه تخصص تاريخ وسيط إسلامي، جامعة أحمد بن بلة، وهران 1، الجزائر.

* أستاذة باحثة مختصة في التاريخ الوسيط الإسلامي، جامعة أحمد بن بلة، وهران 1، الجزائر.

مقدمة:

تعرض الإنسان منذ القدم إلى أمراض عديدة ومختلفة، بعضها كان مرضا معديا وآخر عضالا يؤدي إلى الوفاة، ووباء يؤدي بحياة مئات من الناس، فشكلت بذلك تلك الأمراض تحديا كبيرا خاصة لدى طبقة العوام التي استعملت كل طرق العلاج، فولدت لديهم سلوكات ومواقف عديدة، تحولت بعد ذلك إلى عادات وتقاليد راسخة في ذهنياتهم.

إن الباحث في تاريخ الأمراض والأوبئة يلاحظ الخسائر التي لحقت بالعوام من جراء أمراض خطيرة كالطاعون والجذام والإسهال وغيرها من الأمراض الخطيرة التي أحصت العديد من الضحايا الدين كانوا معظمهم من السواد الأعظم.

أولا-تعريف المرض

المرض هو وضع مناقض للصحة، عرفه ابن منظور بأنه السقم وهو نقيض الصحة[1] أما ابن خاتمة بأنه:" حال للإنسان غير طبيعية يستضر عنها في أفعاله الطبيعية، وهو ضد الصحة التي هي حال له طبيعية، تكون عنها استقامة أفعاله وكلاهما يعني به الطب، إما بإزالته وإبرائه، وأما في الصحة فبحفظها وتثبيتها"[2].

وعرفه ابن رشد بأنه" مفهوم من حد الصحة، إذ كان مقابله، فالمرض حالق في العضو بها يفعل على غير المجرى الطبيعي أو ينفعل"[3]. فهذه التعريفات تجمع على أن المرض هو وضع طبيعي مناقض للصحة تصيب الإنسان في حالة الضعف.

ثانيا- أسباب الإصابة بالأمراض

1- فساد الأغذية

يشير مؤرخو الطب إلى أن تناول بعض الأغذية قد تتسبب أحيانا في حدوث أمراض خطيرة تؤدي إلى الهلاك أحيانا[4]، فالإفراط في الغذاء قد يكون سببا مهما في حدوث الكثير من العلل، لهذا اعتبر ابن خلصون أن حفظ الصحة يكون بحفظ الأطعمة المتناولة[5] إن الخلل في النظام الغذائي هو مشكلة متعددة الجوانب فثمة إشارة جد مهمة عن عواقب الإفراط في تناول الغذاء أدت إلى حدوت مرض كان سببا في وفاة صاحبه عندما أفرط في تناول التين المجفف حتى أصابته نغلة في جنبه أحدثت له داء التشنج الذي توفي به[6].

إذن هناك سبب واضح لحدوث المرض وهو الإفراط في تناول الأغذية التي تحدث خللا في نظام الغذاء قد تؤدي إلى الوفاة، كما أن مؤرخي الطب وضعوا أسباب أخرى للإصابة بعلل كثيرة منها تلوث الماء.

2- فساد الماء

إن تأثير تلوث المياه على الصحة، لا يقل خطورة عن الإفراط في تناول الأغذية، فتلوث الماء أو قلته ظاهرة عامة وشائعة أدت إلى حدوث علل كثيرة[7]، ولعل في إشارات الحميري بإصابة أهل قرية بنتيج بالقرب من وبدة نتيجة تعقد مائها على أسنان أهلها،فشملتهم تلك العلة[8]،برهانا واضحا على حدوث المرض بسبب تلك الطفيليات التي تعلق في الأسنان فتسبب علة الحصى .

وقد مثلت الأمراض المتنقلة عن طريق المياه النمط الرئيس لأمراض الفقراء فأثرت على جانبهم الصحي، وكانت اخطر هذه الحالات تلك الأمراض ذات الصلة بالماء وقد أمكن استخلاص بعض القرائن الدالة على ذلك لأحد المستضعفين الذي اضطرته ظروفه المعيشية الصعبة إلى شرب المياه العكرة

مما تسبب في تدهور صحته، وعبر ابن أبي اصيبعة عن ذلك قائلا:" إن الطبيب عبد الملك بن زهر في وقت مروره إلى دار أمير المؤمنين باشبيلية وجد في طريقه مريضا به سوء قتبه، وقد كبر جوفه، واصفر لونه فكان أبدا يشكو إليه حاله، ويسأل النظر في أمره فلما كان بعض الأيام سأله مثل ذلك فوقف ابو مروان بن زهر عنده، ونظر إليه فوجد عند رأسه إبريقا عتيقا يشرب منه الماء، فقال اكسر هذا الإبريق فانه سبب مرضك.فقال له لا بالله يا سيدي فإني مالي غيره، فأمر بعض خدمه بكسره فكسره فظهر منه لما كسر ضفدع وقد كبر مما له فيه من الزمان.فقال ابن زهر:خلصت يا هذا من المرض انظر ما كنت تشرب، وبرأ الرجل بعد ذلك"[9].

إذن يفهم من هذا أن فساد الماء له أهمية رئيسية في صحة الإنسان،وأكثر المصابين هم الأطفال والشيوخ وهو ما حدث لهذا الشيخ لان جسمه لم يتحمل تلك الطفيليات التي علقت بقارورة الماء، والأكيد أن نقص المياه أو الصعوبة التي تلقاها في الحصول على الماء جعلته يشرب تلك المياه الملوثة.

بالمقابل لا تقتصر المشكلات الصحية في الأندلس على الأمراض الناجمة عن تناول الأغذية ،ولا على مشكل فساد المياه،بل يعتبر الهواء احد مسببات الأمراض.

3- **فساد الهواء**

يعتبر كلا من ابن خاتمة وابن خلدون أن تغير الهواء المحيط بالإنسان وعدم استقرار الجو، سببا في حدوث المرض[10]،ومن ذلك تفسير ابن عذاري مرض الخليفة يعقوب المنصور الموحديب كثرة تعرضه لهواءالاقاليم المختلفة لفترة طويلة[11]،وبالتالي فان تلوث البيئة مشكلة ترتبط ارتباطا وثيقا بالإنسان لأنه لا يستطيع الاستغناء عن الهواء ولو للحظة واحدة،وبالتالي

فساد الهواء الذي يرجح أن يكون من انتشار العدوى من خلال الفضلات البشرية سبب مقنع لحدوث علل عظيمة ،وهو ما حدث فعلا في الطاعون والوباء العظيم الذي ضرب الأندلس في العصر الموحدي.

4- **الجوائح الطبيعية**

تسببت الجوائح الطبيعية في حدوث مجاعات وأمراض كثيرة عندما يعاني الإنسان فيها من سوء تغذية غير سليمة خارجة عن المعايير العلمية لاحتياجاته الفعلية من المواد الغذائية، مما يؤدي إلى اعتلال الصحة وحدوث المرض.

اعتبرت سوء التغذية المشكلة الصحية الأولى التي يكمن سببها الرئيس في عدم القدرة على الحصول على الغذاء الملائم خاصة في أيام المجاعات والقحوط،أين تختل الأنماط المعيشية وتكون سببا في حدوث الأمراض[12] .

تشير النصوص التاريخية إلى انتشار الإصابة بالأمراض في الأندلس،عندما تعرض عامتها إلى الجوع عند حروبهم مع النصارى،فيورد لنا ابن صاحب الصلاة في أحداث سنة 567هـ/1172م عندما تعرض الناس إلى الجوع وكثر الموت،قائلا "نال الناس الضعف والجوع من عدم القوت والعلف ومات كثير من الخيل والبغال والجمال في العقبة"[13].

إذن تسببت ظاهرة المجاعة في وفاة العديد من السكان، وبالتالي قد يضطر البعض وتحت وخزات الجوع إلى تغيير أنظمتهم الغذائية ،فيلجأون إلى تناول مواد تكميلية حيث يرتد الاقتصاد إلى شكله البدائي، فيسود القطف والالتقاط والصيد والقنص،وكلها مظاهر تعكس عودة الإنسان إلى الطبيعة[14]،وهو ما حدث فعلا سنة 612هـ/1215م باشبيلية عندما اضطر أهلها إلى سلوك التقاط الثمار منها البلوط عندما عدم الطعام، فاتخذ أهلها أشجار البلوط قوتا لأنفسهم ودوابهم[15] .

وبذلك حاول السكان إيجاد نظام غذائي غير مألوف بهدف التكيف، والملفت للانتباه في مثل هذه الحالات تغير النمط الغذائي للأفراد خلال الجوائح، لأن المجاعات التي عصفت بالمنطقة أدت إلى تغير المنظومة الغذائية للإنسان بسبب عدم التوازن بين عدد السكان وموارد التغذية،وفي هذا المنحى زودنا ابن عذاري بنص في بالغ الأهمية عن المجاعة العظيمة التي حدثت سنة607هـ/1210م باشبيلية بسبب الحصار فكشف ما قاساه العوام من نفاذ الغذاء حتى أوشكوا على الهلاك بقوله :"ولقي الناس في هذه الحركة من تنوع المسغبة وانتشار المجاعة وعدم الأقوات ما لم يعهده الناس ولا علموه في أسفارهم القاصيات ولا عارضهم مثلها فيما ترددوا فيه من زمن الفتن المبيرات"[16].

والملاحظة الجديرة بالتسجيل أن معظم المجاعات التي وقعت بالأندلس كانت مقرونة بأوبئة وأمراض فتاكة، زادت من تفاقم الوضع بحكم انتقال العدوى ذلك أن الوباء الذي وقع سنة 571هـ/ 1176م زاد من حدة النزيف البشري وكشف اللثام عن وضعية مأساوية نجد أصداءها في نص لابن عذاري بقوله:"ولا يعهد مثله فيما تقدم من الأزمنة قبله"[17].

بناء على ذلك يمكن القول أن الجوائح الطبيعية و فساد مياه الشرب والهواء وتناول الأغذية غير الصحية،هي المسؤولة عن الإصابة العالية بالأمراض إلى حد كبير،والتي مست خاصة الطبقة الفقيرة التي ضاقت ذرعا بالجوائح الطبيعية والحروب.

ثالثا: أهم الأمراض المستعصية

تعتبر الأمراض المعدية بحق من أعظم مآسي الحياة مهما تقدمت حضارة الإنسان، فان الفيروسات والبكتيريا وغيرها من مسببات العدوى ستظل بالمرصاد للفقراء عندما يكثر الإهمال أو تنتشر الفاقة أو تشتد المجاعة.

لقد كانت الطبقة العامة أكثر عرضة للأمراض المعدية نتيجة لتدني مستوى معيشتهم، فواجهوا أمراض خطيرة، كانت أعظمها انتشارا الطاعون والجذام.

1- **الجذام**

يعتبر الجذام واحدا من أكثر الأمراض المعدية المزمنة تشويها وإعاقة للإنسان فهو يؤثر على الجلد ليؤدي إلى مختلف التشوهات، فتتآكل منها الأعضاء وتتساقط[18] لذلك اعتبره ابن رشد من العلل الرديئة التي تصيب البدن وتفسد أعضاؤه[19].

لقد احتل مرض الجذام موقع الصدارة من الأمراض في الأندلس، وقد ارتبط بأمراض أخرى كالجرب والبرص، غير أن المصادر المطلع عليها لا تفيدنا بشيء بخصوص هذه الأمراض، ويبدو أن سبب الإصابة بهما يعود إلى مساكنة المجذومين واستنشاق الهواء الفاسد[20].

والملاحظ انه تزايد عدد المجذومين في الأندلس، حتى تطلب تخصيص للمرضى المصابين بالجذام باب خاص بهم يخرجون منه يدعى باب المرضى[21] وهذا تفاديا للعدوى من جهة وخوفا على سلامة الآخرين من جهة أخرى، حتى أصبح المجذوم منبوذا في المجتمع ومثيرا للقلق وهو ما حفظته لنا أمثال العوام[22].

وقد كانت العامة تساهم هي بدورها في مساندة المجذومين، ودعمهم ماديا من خلال تقديم ما تيسر لديهم من أموال،إذ يشير ابن بشتغير في نوازله إلى احد

العوام الذي تصدق بماله على الجذمى[23] وإلى جانب ما كانت تقوم به العامة من مساندة الجذمى عملت السلطة الموحدية على العناية بالمرضى.

ولكن الملفت للانتباه هو أن العامة أعطت سببا لحدوث مرض الجذام، غلب عليه الطابع الخرافي الذي لقي حظه ضمن تفسيرات هذا المرض، فاعتبر أهل باجة أن من يصيبه مرض الجذام فذاك عقاب من الله وهو ما حدث لعمر بن سحنون عندما عاقبه الله بمرض الجذام[24].

ولكن يصعب تفسير هذا السبب فهو بعيدا عن الواقع، إذ لم تكن الأسباب الذي وضعها أهل الاختصاص لتحدد سبب حصول المرض عند العامة التي عجزت عن إيجاد تفسير لمرض الجذام، فاعتبروه عقاب الهي يستوجب البعد عن صاحبه حتى لا يتعرض الآخرون منه بالأذى.

2- وباء الطاعون

يعتبر مرض الطاعون من اشد الأمراض الوبائية المعدية التي فتكت بالإنسان عبر التاريخ، إذ يرتبط حدوثه بوقوع أوبئة بين البشر تؤدي إلى فساد الهواء، إذ يموت الناس دون أن يصيبهم مرض ،وهذا راجع كله إلى تغير ظروف البيئة المحيطة بالإنسان.

لحقت بالمجتمع الأندلسي في العصر الموحدي وضعية مأساوية بسبب حدوث الأمراض الوبائية ،عندما تلازمت فيها حروب الموحدين بانتشار الأمراض وعجز الإنسان عن مواجهتها لمّا قام بإشعال كوارث الحروب وما انجر عنها من انتشار الأمراض الخطيرة كان أعظمها الطاعون العظيم الذي ظهرت بوادره عام 572 هـ/1176 م عندما عزم الخليفة أبو يعقوب على الانصراف من الأندلس على رأس جيش في حملة عسكرية فظهرت ملامح هذا الوباء بمدينة كونكة لما استغاث أهلها بأمير المؤمنين وكان الناس من ضعف المرض والطاعون لا يقدرون على الحركة[25].

بناء على ذلك فان الحروب التي قادها الموحدون ضد النصارى، كان من الطبيعي أن تفرز الجوع وسوء التغذية بالأندلس، وهو وضع كانت له جذوره العميقة في التكوين السياسي والاقتصادي والاجتماعي لمعظم أرجاء الأندلس، لكن البؤس الذي شهدته البلاد في أعقابها هو الذي اخرج حقيقة المأساة الرهيبة التي عانى منها البشر خاصة فئة المستضعفين، من جراء سوء التغذية حتى أنهم لم يستطيعوا الحركة.

لقد فتك هذا الوباء القاتل بأرواح الكثيرين، غير أن المصادر وللأسف لم تعطينا إحصائيات دقيقة عن عدد الموتى فقد اكتفت بالتعبير عن كثرتهم دون الإشارة إلى العدد.

وبذلك أضحى مرض الطاعون الشغل الشاغل للسلطة الموحدية، في وقت لم تستطع فعل شيء اتجاه خطره الذي أصبح يهدد حتى الخلفاء أنفسهم في قصورهم،والأكثر من هذا دلالة انه كان يموت في كل يوم في دور الخلفاء ثلاثون شخصا حتى فني أكثر من كان في قصورهم ودورهم[26].

فإذا كانت قصور الأغنياء تحصي يوميا عدد القتلى حتى أصبحت شبه فارغة[27]، فماذا عن الفقراء الذين عاشوا طيلة حياتهم البؤس والفقر يتكبدون آلام المحن والأزمات؟ .

يؤكد المؤرخ ابن ابي زرع أن هذا الوباء زاد من معاناة المستضعفين سنة 610 هـ/1213م عندما انتشر هذا الوباء العظيم انتشارا[28].

وبالتالي كان لهذا الوباء القاتل اثر كبير على البيئة في بلاد الأندلس وانعكس ذلك على الحياة العامة، واثر تأثيرا كبيرا على كل منحى من مناحي الحياة،و يصور لنا المؤرخ نفسه محنة هذا الوباء قائلا:"وكان الناس يموتون فيه من غير مرض،فكان الرجل لا يخرج من منزله حتى يكتب اسمه ونسبه وموضعه في براءة ويجعلها في جيبه فان مات حمل إلى موضعه وأهله"[29].

و ثمة إشارة جد مهمة توضح عن هروب أكثر السكان إلى البلدان الأخرى بحثا عن ظروف حسنة للعيش بعيدا عن الأوبئة،إذ يشيرالحميري في أخبار سنة 635 هـ/1238م التي عم فيها الموت الكثير بالمغرب والأندلس حتى هرب أكثر أهل البلاد جراء تفشي وباء الطاعون[30] .

وما هذا النص إلا دليل واضح على أن المستضعفين والفقراء هم أكثر عرضة للموت والهجرة أثناء انتشار الأوبئة بينما ينحشر الخواص وحاشيتهم في القصور.

لم يكن الطاعون الوباء الوحيد الذي فتك بأرواح طبقة عريضة من العوام ،بل تزودنا مصادر الفترة المدروسة بانتشار أمراض أخرى يتبادر إلى أذهاننا أنها أمراض سهلة العلاج وليست بالخطرة ولكنها في أوساط العوام قد تؤدي بحياتهم نتيجة انتشار الفاقة وسوء التغذية،فيذكر ابن زهر أن رجلا أصابه سعال شديد حتى ذهب معظم لحمه[31]ويضيف عن احد المستضعفين الذي مات بحمى عظيمة أصابته[32]،وتسبب إسهال في وفاة أخر[33] .

ومن الملفت للنظر أن حتى الأطباء لم يسلموا من بعض الأمراض،إذ يشير ابن أبي اصيبعة إلى طبيب المنصور الموحدي أبو الحجاج يوسف بن موراطير انه توفي بعلة النقرس[34] .

فإذا كانت هذه الأمراض تصيب الأطباء أنفسهم بالرغم من باعهم الطويل في ميدان الطب، فماذا عن العامة المستضعفين الذين مستهم العديد من الأمراض المعدية بسبب انتشار الفاقة.

رابعا: أساليب العلاج عند العامة

لا سبيل إلى الشك في أن انتشار الأمراض جعل الكثير من العوام يلجأون إلى الطب البديل آو الشعبي الذي أصبح أكثر استقطابا للمرضى،نتيجة دخلهم

الزهيد مما جعلهم يبحثون عن الاستشفاء من دون دفع المال، وان المرض بصفة عامة كان يصيب الطبقة الفقيرة من الضعفاء على العموم .

عانى العوام في الأندلس من انتشار أمراض خطيرة بسبب انتشار المجاعات وما انجر عنها من سوء التغذية، حتى جعلت بعض الأطباء يطببون الناس من دون أجرة كالطبيب أبو بكر بن القاضي الزهري الذي كان يطبب الناس من دون أجرة ويكتب النسخ لهم[35]أما الطبيب أبو بكر بن طفيل فانه خصص دارا لمن يجتاز به من الأضياف وأصحاب الآلام[36].

وما هذا إلا دليل واضح على أن العديد من العوام لم يجدوا حتى المال لعلاج أنفسهم من الأمراض التي كانت تصيبهم فيلجئون إلى علاج أنفسهم بمعارفهم. وبالرغم من اختلاف صور ووسائل هذا العلاج وتباينها وتضاربها أحيانا، فان ما يجمع بينها ويوحدها هو كونها نابعة ومنحدرة من تجربة تاريخية حفظتها الذاكرة الجماعية وصارت توظفها في خدمة المجتمع، وتجب الإشارة إلى أن كثيرا من عناصر هذا الطب مأخوذة من الطب العلمي، لكن وصولها إلى العامة افقدها صبغتها العلمية وأضفى عليها صفة البساطة والتفاهة أحيانا[37]

ولهذا نجد أن الكثير من الناس اعتمدوا على العلاج البدائي أو التقليدي، فحظيت عندهم الأعشاب الطبية بمكانة كبيرة، فقد انتشرت صناعة الأدوية والعقاقير في الأندلس بسبب وفرة الأعشاب، وهو ما ساعد العشابين على تركيب أدويتهم في دكاكينهم لعلاج المرضى وقد كان لهؤلاء العشابين الخبرة في الأعشاب وأنواعها وفوائدها، لذلك قصدهم الناس للتزود بحاجياتهم، فقد كان للعشاب أحمد بن محمد الاشبيلي (ت562هـ/1166م) دكان متسع يقعد فيه لبيع الحشائش الطبية والنفع بها[38]حتى أطلق عليه اسم

عبقري الصيدلة[39] أما الطبيب العشاب حسن بن احمد بن عمر فقد كان موفقا في العلاج وفاق أهل عصره في تمييز النبات والعشب[40].

كما اعتبرت الأسواق المكان المناسب للعديد منهم لممارسة مهنتهم وبيع الأعشاب وإعداد الأدوية للفئات المستضعفة، فضلا عن اتخاذ العديد من الأطباء دكاكين لهم في الشوارع والأسواق[41] وحتى بجانب المساجد وهو ما أشار إليه العمري عند وصفه لدكاكين العطارين التي كانت تحيط بجامع غرناطة [42] وهذا ما يبين أن العشابين كانوا يقيمون دكاكينهم بالقرب من التجمعات، ومن هنا نستنتج أن الدكاكين والأسواق صارت المظهر الطبي البارز في الأندلس في العصر الموحدي والتي استقطبت الكثير من الزبائن وجعلتهم يبحثون على العلاج بالأعشاب الطبية،هذا عن الطبقة التي كانت تملك ما تيسر لها من مال لشراء الأدوية من العشابين،أما الطبقة المستضعفة فإنها كانت تعالج المرض بالأعشاب التي تلتقطها من الطبيعة اعتمادا على معارفها[43].

فضلا عن ذلك اعتقد الكثير من العوام في نجاعة مياه العيون والحماة لعلاج بعض الأمراض، وقد وجد بجامع المرية ماء ينزل من السارية اليمنى مما يلي المنبر يعالج الحمى[44]وقرب مدينة مرسية توجد عين ماء عذب بارد يقصدها من علق العلق بحلقه فيفتح فاه فيسقط العلق من الحلق لحينه[45].

إذن كانت مياه العيون الباردة تعالج العديد من الأمراض كالحمى ،العلق والوجع حسب اعتقادات العامة،كما وجدت حمات حارة تعالج أمراض أخرى ويبدو أنها كانت مخصصة للأمراض الجلدية المعدية وخوفا من انتشارها خصصت السلطة أموالا للحد من انتشارها،فقد أجرى الخليفة يعقوب المنصور بالإنفاق على أهل المارستان والجذمى والعميان في جميع عمله[46].

اهتم سكان الأندلس ببناء مراكز صحية للأمراض المعدية، كالجرب والجذام والجذري التي كانت عادة ما تصيب عوام الفقراء والضعفاء بغية التداوي بالمياه المعدنية الحارة، أهمها الحامات التي كان يقصدها المصابون، منها حمة مالقة حيث الماء الساخن العجيب الغريب[47] وحمة جيان العظيمة[48] التي كان يقصدها عدد من المرضى وذوي العاهات أملا في الشفاء ،وقرب بجانة من ناحية الغرب نجد حمتين صغيرتين هما حمة غشر وحمة شتين[49] ، وفي رحلته إلى الأندلس أشار ابن بطوطة الى" الحمّة التي بها العين الحارة، فيها بيت لاستحمام الرجال، وبيت لاستحمام النساء"[50] .

لقد كان المرضى يقيمون في الحمة لغاية شفائهم، وهو ما يوضح أن اعتقادهم كبير في أنها كفيلة وحدها بشفائهم، وبذلك فإنهم غير مضطرين للجوء إلى الأطباء[51] ، وهو ما أكده الإدريسي عندما قال: "كان يقصد الحمة عدد كبير من المرضى وذوي العاهات ومن كل الجهات فيلزمون المقام بها إلى أن تستقل عللهم ويشفوا من أمراضهم[52] .

لقد اقبل الأندلسيون على العيون والحمات قصد الاستشفاء، وتجدر الإشارة إلى أن السلطة الموحدية قد سخرت جهودها للحد من انتشار بعض الأمراض المعدية كالجرب والجذام، فقام الخليفة يعقوب المنصور ببناء المارستان للمرضى والمجانين وجارى الإنفاق على أهل المارستان والجذمى والعميان في جميع عمله[53] .

فلا ندري إن كان هذا تقربا للعامة، أم خوفا من العدوى خاصة إذا علمنا آن الخليفة عبد المؤمن بن علي قد أصيب به[54] ، أم خوفا من الاعتقادات السائدة حول هذا المرض إذ اعتبرت العامة أن من أصابه مرض الجذام فذاك عقاب من الله[55] .

مهما يكن من أمر هذه التساؤلات، فان السلطة قد اتخذت التدابير لمواجهة الأمراض والأوبئة وجهزت كل الوسائل الضرورية لصحة السكان.

كما لجأ بعض المرضى إلى كرامة الأولياء والمتصوفة سواء كان هؤلاء الأولياء أحياء وذلك باعتمادهم على العلاج بالدعاء ،إذ كان الفقيه الزاهد أبو عمران المرتلي قبلة للعوام يستوهبون دعاءه [56] أما إذا توفي الولي فقد كانت العامة تقصد ضريحه للتبرك به[57].

لقد شكل تراب الأضرحة والقبور استعمالا واسعا في أوساط العامة للعلاج فاتخذوه علاجا لبعض الأمراض، فيمسحون به وجوههم أو يعلقونه، فقد كان العوام يتبركون بتراب قبر احد المتصوفة ويأخذون منه بعض الشيء قصد الاستشفاء به للمرضى[58].

ويبرز هذا النص أن استعمال تراب القبور وأماكن إقامة الأولياء كان منتشرا في الأندلس، واستقطب فئات العامة التي كانت تبحث عن كل الطرق للعلاج بالطب الشعبي، أما بعض المرضى فقد اختاروا طريقة سهلة للعلاج وهي اللجوء إلى العرافين الذين ينظرون في الأكتاف والغبار والرصاص الذائب، وهي أمور واسعة الانتشار في الأندلس حسب ما أورده الونشريسي في إحدى نوازله [59]. وظل العلاج بكي المريض آخر وسيلة يلجأ إليها المرضى لعلاج أنفسهم حسب ما عبرت عليه العامة في أمثالها الشعبية[60].

يتبين مما سلف أن طرق العلاج في الأندلس قد اتخذت أشكالا مختلفة من طرف العوام الذين لم تسمح لهم ظروفهم الاجتماعية التوجه إلى الأطباء للعلاج، واكتفوا بعلاج كافة أنواع الأمراض بالتوجه إلى الحمات والعيون، أوالمداواة بالأعشاب الطبيعية، والتوجه إلى الأولياء والتبرك بهم للاستشفاء

الخاتمة:

لقد بينت الأمراض التي مست العامة، على مظهر آخر من مظاهر الفقر التي عاشتها هذه الطبقة، في ظل ظروف معيشية صعبة جراء تداخل الجوائح الطبيعية بالفتن البشرية، إذ عانوا من خلالها مرارة الأمراض المستعصية من جهة والفقر من جهة أخرى.

الهوامش:

1- ابن منظور،محمد بن مكرم الإفريقي المصري،لسان العرب،المجلد 14،دار صادر،بيروت،الطبعة الثالثة،2004،ص56

2- ابن خاتمة،أبو جعفر احمد بن علي،تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد،مكروفيلم،الخزانة الحسنية،الرباط،رقم1221،ص4

3- بن رشد،أبي الوليد محمد بن احمد، الكليات في الطب،تحقيق وتعليق احمد فريد المزيدي،دار الكتب العلمية،بيروت،الطبعة الأولى،2005،ص85

4- راج الدين عبد اللطيف بن موسى،الموصل إلى الأغراض في مداواة الأمراض، مخطوط بمكتبة الملك عبد الله بن عبد العزيز الجامعية،قسم المخطوطات،ص3/ابن خاتمة،المصدر السابق،ص13/ ابن أبي اصيبعة، موفق الدين أبو العباس بن القاسم،عيون الأنباء في طبقات الأطباء،ضبطه وصححه محمد باسل عيون السود،دار الكتب العلمية،بيروت الطبعةالاولى1998،ص477.

5- ا بن خلصون،أبو عبد الله محمد بن يوسف بن خلصون،كتاب الأغذية وحفظ الصحة،مخطوط رقم 3931،الخزانة الحسنية،الرباط،ورقة ص17.

6- بن أبي اصيبعة،المصدر السابق،ص 477.

7- ابن خاتمة،المصدر السابق،ص21

8- الحميري،الروض المعطار ص608

9- ابن أبي اصيبعة،المصدر السابق،ص477.

10- ابن خاتمة، المصدر السابق،ص6 ،ابن خلدون، ابو زيد عبد الرحمن بت محمد، المقدمة، دار الجيل بيروت،بدون طبعة،ص96
11- ابن عذاري،المصدر السابق،ص230
12- ابن البيطار،ضياء الدين أبي محمدعبد الله بن احمد،الجامع لمفردات الأدوية والأغذية،دار الكتب العلمية،بيروت،طبعة2001، ج4،ص510.
13- ابن صاحب الصلاة،عبد الملك بن محمد بن احمد الباجي،تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بان جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين وظهور المهدي بالموحدين، تحقيق عبد الهادي التازي،دار الغرب الإسلامي،تونس،الطبعة الرابعة 2012،ص ص510.
14- عبد الهادي البياض،الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس(ق6-8هـ/12-14م) دار الطليعة،بيروت،الطبعة الاولى،2008،ص188.
15- عزاوي احمد،رسائل موحدية(مجموعة جديدة)،منشورات كلية الآداب،جامعة ابن طفيل القنيطرة،1995، ج1،الرسالة رقم82،ص303.
16- ابن عذاري،أبو العباس احمد بن محمد،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،قسم الموحدين،تحقيق الأساتذة محمد إبراهيم الكتاني،محمد بن تاويت،محمد زنيبر،عبد القادر زمامة،دار الثقافة،الدار البيضاء،الطبعة الاولى،1985،ص259
17- ابن عذاري،المصدر نفسه،ص 136
18- المراكشي،عبد الواحد بن علي ،المعجب في تلخيص أخبار المغرب،شرحه صلاح الدين الهواري،المكتبة العصرية صيدا،بيروت،الطبعة الأولى) 2006،ص173
19- ابن رشد،المصدر السابق،ص97/حبيب مصطفى عز الدين،جوانب من التاريخ الحضاري للطب والصيدلة في الأندلس خلال عهدي المرابطين والموحدين،أطروحة دكتوراه مرقونة،الرباط،1999،ص410
20- حبيب مصطفى عز الدين،المرجع السابق،ص415

21- ابن فضل الله العمري،مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الرابع(ممالك اليمن والغرب الإسلامي وقبائل العرب)تحقيق حمزة احمد عباس،المجمع الثقافي أبو ظبي،الطبعة الأولى،2002 ،ص230

22- قالت العامة:"اقل للمجذوم :تكل مكشوف؟قال:لن يزيد النحس ينقص"،الزجالي،أبو يحي عبيد الله بن احمد الزجالي القرطبي،أمثال العامة في الأندلس،تحقيق وشرح محمد بن شريفة،منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي،القسم الثاني،مثل رقم 79،ص23

23- ابن بشتغير،احمد بن سعيد الخمي، نوازل احمد بن سعيد بن بشتغير،دراسة وتحقيق وتعليق قطب الريسوني،دار ابن حزم،بيروت،الطبعة الأولى،2008،ص194

24- ابن عذاري،المصدر السابق،ص127

25- ابن عذاري،المصدر نفسه،ص137

26- المصدر نفسه،ص136

27- ابن الابار ابرهيم بن عبد الله القضاعي،المقتضب منتحفة القادم،تحقيق إبراهيم الابياري،دار الكتاب المصري،القاهرة،دار الكتاب اللبناني،بيروت،د ط ،1987،ص72

28- ابن أبي زرع الحسن علي بن عبد الله،الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس،دار المنصور، الرباط، طبعة1972،ص272

29- ابن أبي زرع،المصدر نفسه،ص145

30- الحميري،أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم(توفي بعد 866هـ/1461م)الروض المعطار في خبر الأقطار،تحقيق إحسان عباس،مؤسسة ناصر للثقافة،الطبعة الثانية،1980،ص255

31- ابن زهر،أبو مروان عبد الملك،التيسير في المداواة والعلاج ،تحقيق محمد بن عبد الله الروداني،مطبعة فضالة ،المحمدية،1991،ص200

32- ابن زهر،المصدر نفسه،ص201

33- محمد بن احمد بن أبي جعفر من أهل بلنسية توفي بعد إسهال أصابه سنة 586هـ ،ابن عبد الملك المراكشي ،أبي عبد الله محمد بن احمد،الذيل والتكملة لكتابي

الموصول والصلة، تحقيق إحسان عباس،دار الثقافة،بيروت،الطبعة الأولى 1973، السفر6، ص149

34- ابن أبي اصيبعة،المصدر السابق،ص491،وتوفي بعلة النقرس أيضا أبي إسحاق برّار بن محمد الكاتب سنة 559هـ،،ابن صاحب الصلاة،المصدر السابق،ص205

35- ابن ابي اصيبعة، المصدر السابق،ص492

36- ابن سعيد الأندلسي،أبو الحسن علي بن موسى،المغرب في حلى المغرب،وضع حواشيه خليل منصور،دار الكتب العلمية،بيروت،الطبعة الأولى،1997 ج2،ص69

37- محمد حقي،الموقف من المرض في المغرب والأندلس في العصر الوسيط،مطبعة مانبال،بني ملال،2007،،ص64

38- ابن عبد الملك،المصدر السابق، تحقيق إحسان عباس،دار الثقافة،بيروت،بدون،1965، س1،ق2،ص513

39- إسلام صبحي المازني،روائع تاريخ الطب والأطباء المسلمين،دار الكتب العلمية،بيروت،الطبعة الأولى ص158

40- ابن الابار التكملة لكتاب الصلة،تحقيق عبد السلام الهراس،دار المعرفة،الدار البيضاء، بدون، ج1،ص214

41- عصمت عبد اللطيف دندش ،الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين،عصر الطوائف الثاني،510-546هـ/1116-1151م،دار الغرب الإسلامي،بيروت،الطبعة الأولى،1988،ص188.

42- العمري،المصدر السابق،230

43- أبو الخير الاشبيلي،عمدة الطبيب في معرفة النبات،تقديم وتحقيق محمد العربي الخطابي،دار الغرب الإسلامي،الطبعة الأولى،1995،ج1،ص101/ أبو حامد الغرناطي،تحفة الألباب ونخبة الإعجاب،تحقيق إسماعيل العربي،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائرطبعة1989،ص111، 114

44- الزهري، أبي عبد الله محمد بن ابي بكر،كتاب الجعرافية،تحقيق محمد الحاج صادق،مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة،بدون طبعة،ص206

45- الحميري،المصدر السابق،ص539

46- ابن ابي زرع،المصدر السابق،ص217
47- النباهي ،ابو الحسن بن عبد الله المالقي تاريخ قضاة الأندلس،شرحه ووضع فهارسه،صلاح الدين الهواري،المكتبة العصرية صيدا،بيروت،الطبعة الاولى،2006،ص97
48- مجهول،ذكر بلاد الأندلس،تحقيق وترجمة لويس مولينا،المجلس الأعلى للأبحاث العلمية،مدريد، ج1، طبعة1983،ص46
49- الادريسي،الشريف ابي عبد الله الادريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،مطبعة بريل،لندن،1962،ص201
50- ابن بطوطة،رحلة ابن بطوطة،دار صادر،بيروت،ط3، 2007،ص390
51- كرراز فوزية،دور المرأة في الغرب الإسلامي من القرن الخامس الهجري إلى منتصف القرن السابع الهجري)ق11-13م)دراسة في التاريخ الحضاري والاجتماعي للغرب الإسلامي،تقديم غازي مهدي جاسم الشمري،دار الأديب للنشر والتوزيع،وهران،بدونص89
52- الادريسي،المصدر السابق،ص200
53- ابن أبي زرع،المصدر السابق،ص217
54- المراكشي،المصدر السابق،ص173
55- ابن عذاري،المصدر السابق،ص127
56- ابن سعيد،المغرب،الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة،تحقيق إبراهيم الابياري،دار المعارف،القاهرة،بدون،ص137.
57- تبرك الناس بزيارة قبر الوليد بن محمد بن احمد(ت سنة 590هـ) ابن الزبير،أبي جعفر احمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي،صلة الصلة،ضبط وتعليق جلال الأسيوطي،المجلد السادس،دار الكتب العلمية،بيروت،الطبعة الأولى،2008،ص316
58- ابن عبد الملك المراكشي،المصدر السابق،س5،ق1،ص430، ابن الزبير ،المصدر السابق،ص269

59- الونشريسي،أبو العباس أحمد بن يحي،المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس،نشر وزارة الأوقاف الإسلامية،المملكة المغربية،بدون طبعة،1981، ج11،ص182

60- تقول العامة:آخر الطب الكي"الزجالي،المصدر السابق،مثل رقم248ص61